الهروب إلى المجهول

وطن دون كرامة... غربة

صيف عام ١٩٩٨ قررت مع عائلتي الهروب بشكل نهائي من العراق، إثر العديد من المضايقات التي تعرضنا لها من قبل السلطة الحاكمة وعناصر حزبها، وكذلك بسبب الضغوط الحياتية والاقتصادية الكبيرة الناتجة عن الحصار الاقتصادي الخانق الذي فرضته الأمم المتحدة ودول العالم المتحضر على النظام الحاكم والذي أثر كثيرًا وبشكل مباشر على حياة الشعب العراقي البائس وليس على قادة النظام، لا بد أن أعترف أن قبل هذا التاريخ لم أكن أبدًا أفهم أو أقتنع بموضوع هروب أو هجرة البعض من الوطن الأم، إلى أن كوتني الحياة وشعرت بثقلها على كاهلي.

كان لا بد لي من وضع عمل خطة سرية محكمة كي لا تُثير انتباه عناصر الأمن وأعضاء حزب السلطة، أو حتى الضباط الآخرين الذين يقطنون في حي الضباط في ضاحية الغزالية حيث أسكن، إذ لا يمكن الوثوق بأي أحد في ظل هذا النظام القاسي، كانت خطتي تقضي أن أستصدر جواز سفر مزور لي وأخرى رسمية لأفراد عائلتي، وأبيع بيتنا ومتجري الصغير وأكبر كمية من أغراض البيت، والتحول إلى مكان سكن آخر في منطقة أخرى، ومن هناك تتم عملية هروبي وعائلتي إلى خارج العراق.

بدأنا تنفيذ الخطة بعرض بيتنا للبيع، كان عامل الوقت ضاغط؛ لذا وضعت بيتنا للبيع لدى العديد من سماسرة العقارات، وبالتوازي قمنا ببيع بعض الأغراض على تجار المواد المتجولين، ولا بد من سرد حادثة ظريفة مع شيء من حسن الحظ الذي رافقها، حين دعونا أحد هؤلاء التجار إلى بيتنا وكان يدعى (أبا

غفران) لشراء بعض الأغراض في أحد تلك الأيام، لكنه سرعان ما أخذ يتردد يوميًا لشراء مواد أكثر فأكثر، حتى استطاع ابتياع جميع الأغراض والأثاث التي رغبنا ببيعها، وكذلك حتى المواد المُستهلكة والمُهملة التي لم نكن نعتقد بإمكانية بيعها.

كانت شقيقة زوجتي (ف) حاضرة لهذه الأحداث، تمد يد العون لنا ولقد راقها هذا الحال كثيرًا، كُنا جميعًا سعداء جدًا لوجود هذا الرجل، بسبب دماثة أخلاقه وبساطته وكذلك إعطاءه أسعار غير بخسة، حتى أصبحنا نفترش معهُ الأرض ونأكل سويًا، كأنه أصبح أحد أفراد العائلة، ويبدو أن الله قد أرسله لمد يد العون لنا في أحلك ظرف نمرُّ به، مرَّ الوقت ولم يتم بيع البيت، مما اضطرني إلى كتابة لافتة ووضعها على جدار البيت، حتى جرت مسألة البيع بسرعة أكبر ودون تدخل من قبل أي سمسار.

كان جميع الجيران والأصدقاء يتساءلون عن سبب اتخاذنا هذا القرار المفاجئ، حتى أن بعضهم قال لي بشكل مباشر هل ستهاجرون البلد إلى السويد؟ إلا أنني أنكرتُ بشدة وأكدتُ أننا في طور إنجاز مشروع جديد في مجال صياغة الذهب، أسعى من خلاله لتحسين مدخولاتي من أجل سد متطلبات العائلة الاقتصادية.

وصلت مرحلة استصدار جوازات السفر لزوجتي وأولادي، ولما كان أولادي جميعهم في المدرسة لذا طلبنا منهم القول إنهم قد تركوا المدرسة ولا يذهبون إليها، سأل ضابط الجوازات زوجتي عن سبب استصدارها للجواز، فكانت إجابتها أنه لغرض السفر إلى مملكة الأردن لمعالجة ابنتي الصغيرة (فرح)، بعد ذلك أخذ يسأل الأطفال وبدأ بابني البكر زيد، فأجابه أنه قد ترك المدرسة وهكذا مع ابنتي هند، ولكن الظريف أن ابنتي الصغرى فرح بادرت من نفسها ببراءة الأطفال وقالت للضابط إنها لا تذهب إلى المدرسة دون أن يسألها أو يطلب منها ذلك، باندهاش ضحك الضابط وضحكنا معه بتحفظ شديد.

أرسل ضابط الجوازات زوجتي وأولادي إلى القسم الخاص بالعسكريين وبعد عدة أسئلة إضافية تمَّ قبول أعذارهم وطلبهم، بعد أن تأكدوا من بقائي في البلد كضمانة لعودتهم وبذلك تمَّ الموضوع على سلام، بعد مرور أسبوع استلمنا جوازاتهم دون أية مشاكل.

إن إنجاز أي وثيقة في بلد ذو حكم شمولي كالعراق يخضع للسؤال والاستجواب والتحقيق حتى وإن كانت من أصل حقوق المواطن، إن أي مواطن في عرف السلطة الحاكمة في العراق يعتبر مذنب إلى أن يتم تبرئته بالتحقيق من لا ذنب.

كما المثل القائل (تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن) فلقد أتت رياح سرقة جميع وثائق العائلة الرسمية بأكملها بما لا تشتهي عملية بيع بيتي وهروبنا، إن سوء الحظ رافقني تلك الأيام، إذ حصل يوم وأثناء ما كنت أقوم بالتسوق في سوق حي العامل في بغداد تمَّ سرقة جميع وثائقنا الرسمية ومبلغ من المال مع كمية من المصوغات الذهبية من صندوق سيارتي، بضمنها وثائق الشخص الذي ابتاع بيتنا مما استدعاني إلى استصدار وثائق كاملة بديلة وهذا تطلب مني بذل جهود مضنية مع صرف مبالغ مالية لرشوة الموظفين في تلك الدوائر.

كنت قد بدأت بالسؤال بطريقة غير مباشرة عن طريقة سرية وآمنة لاستصدار جواز سفر مزور لي، كوني ضابط ممنوع من السفر وفق القانون آنذاك، والذي يعتبرها جريمة يعاقب عليها في حال محاولة الضابط السفر إلى خارج العراق، حصل أن قابلت ابن خالتي (داخل بطيخ ساهي) صدفةً في سوق البياع الشعبي للفواكه والخضار، وأعلمني بإمكانيته مساعدتي في إنجاز ذلك كونه يعرف أحد ضباط الجوازات مقابل مبلغ مالي يُدفع مقدمًا، إلا أنني في بداية الأمر لم أؤمن به كثيرًا.

مضت فترة حتى استطعنا الانتقال إلى بيت شقيق زوجتي الواقع في منطقة السيدية، وبذلك تخلصت من نظرات ومراقبة جميع من يعرفني في ضاحية الغزالية الخاصة بضباط الجيش العراقي بمختلف صنوفه، أخذت أتواجد في

متجر شقيق زوجتي الواقع في ضاحية الكرادة الراقية في بغداد، وكانت روايتي تتلخص أنني أصبحت شريكًا له في متجره.

بين الفينة والأخرى كنت أزور أبي وأمي في بيتهما الذي يقع في ضاحية السيدية، أجلس معهما أتحدث عن جميع الأمور ما عدا موضوع الرحيل، إذ أبقيته سر ولم أخبرهما به حتى ليلة قبل الرحيل.

مع أحد أقربائي المخلصين (جواد عودة) الذي كانت له علاقة جيدة نسبيًا مع أحد ضباط الجوازات وكان برتبة ملازم، اتفقنا على استصدار جواز سفر لي مقابل مبلغ مالي كبير، كانت الخطة تقضي أن أستصدر هوية أحوال مدنية وشهادة جنسية عراقية مزورة وبطاقة سكن، وفي جميعها يجب أن أكون بصفة (جندي مكلف)، لذا كان لا بد من البدء من عمل هذه الوثائق المزورة التي أخذت مني جهد كبير ومال كثير لحين أن وفرتها جميعها.

توجهت بعد أن دفعت المبلغ كاملاً إلى ذلك الملازم ضابط الجوازات في مديرية الجوازات العامة عبر أقاربي، كان يوم شتوي غير قاسي البرودة في حضرة شمس مجرتنا الخالدة التي تُهدي الكون وأجسادنا بدفء لذيذ، تلك اللحظة التي قابلت فيها ضابط الجوازات لم أكن أحتاج إلى أي دفء شمسي، إذ أن حرارتي قد ارتفعت بشكل آلي ودون سيطرة مني.

قدمت وثائقي المزورة له، أخذها بيده ونظر إليّ وكأنه لا يعرفني إطلاقًا، كان قلبي يخفق بقوة رغم أني أعرف أنه قد تسلم المبلغ المتفق عليه، رماها على مكتبه ثم أخذ يُحقق معي، حيث سألني عن عملي فأجبته أني عامل وأنهيت خدمتي العسكرية الإلزامية، بعد لا أكثر من عشرة دقائق انتهى من عمل معاملة خاصة بجواز سفر لي وأخبرني بالانصراف والعودة بعد فترة لاستلامه، شكرته كثيرًا ومضيت.

مرت أيام وأنا أكتوي من الانتظار القاتل، كان أول أيام العيد المندائي الصغير (عيد الإزدهار)[1] الناس تزور المندي[2] لآداء الطقوس الدينية، تتزاور وتقدم تهانيها لبعضها بحلول العيد، حتى وردني اتصال هاتفي من قريبي مُعلنًا فشل عملية إصدار جواز السفر، ولكن الأسوأ من كل ذلك هو اتضاح هويتي ومعرفة الأمن بكل تفاصيل عملي، كوني ضابط برتبة رفيعة ولستُ جندي.

الصمت المطبق كان سيد الموقف، الخوف يسري في عروقي وعروق زوجتي، الرعب عشعش في ضمائرنا، الفزع تملكنا بالكامل، أفكار سوداء تراودنا دون رحمة، كأن شهاب كبير من السماء سقط على رؤوسنا فأطاح بها مرة واحدة فلم نستطيع آنذاك لملمة أشلائنا، فورًا تراءت لي قضبان السجن السوداء ولحظات إعدام المدعو (تحسين) رغم أني لم أفعل مثلما فعل، كان هذا ما أخبره به ضابط الجوازات.

أصيب الجميع بوجوم وذهول لتلك المفاجأة غير المتوقعة، ساد الصمت لفترة قطعه صوت الأطفال الذين لم يكفوا عن اللعب في غرفة المعيشة الصغيرة التي نجلس فيها.

إذًا لقد فشلت عملية إصدار جوازي المزور وحلت اللعنة عليّ وعلى زوجتي وعائلتي بالكامل، حيث لم نعلم ما العمل حينها سوى دعواتنا وصلواتنا للحي العظيم أن ينقذنا من هذه الكارثة التي حلت علينا فجأة، بصوت متشنج مخنوق رجوت قريبي كي يحاول مع صديقه الضابط قصارى جهده ويطلب منه أن يعمل المستحيل كي يتلافى الموضوع حتى وإن كلف ذلك مبلغ كبير فوعدني بذلك، أخبرته أني لن أطالبه بالمبلغ الذي أخذه مسبقًا، فليتصرف به كي ينقذ

:- عيد الازدهار: هو العيد الصغير لدى الصابئة المندائيين حيث يحتفل بازدهار الأرض بالزرع واستعدادها لعيش الإنسان.

٢- المندي: بيت العبادة الذي تُقام فيه الطقوس الدينية واللقاءات بين المندائيين.

الموقف، مرَّ الوقت ساخن ثائر محفوف بالخوف الحقيقي من دخول رجال الأمن إلى بيتنا في أي لحظة، رفعت رأسي نحو السماء بخشوع وتلوت صلواتي.

بعد لا أكثر من ساعتين دخل قريبي يحمل الإضبارة الخاصة بجواز سفري المصنوعة من ورق كارتون أسمر اللون، من النوع الرخيص جدًا، والتي نُقش في أعلاها (أنه عقيد في الجيش/ القوة الجوية)، كما كان مثبت أسفلها عدة عبارات تشدد أنه ممنوع عليّ السفر.

انفرجت أساريري قليلاً ورسمت شبح ابتسامة وارتحتُ قليلاً بعد أن أخبرنا قريبي أن الموضوع قد تمَّ تلافيه وقد أغلقت القضية دون أي عواقب، وكذلك دون عودة أي دينار من ذلك المليون التي دفعتها له، ولا بأس بذلك كي أحتفظ برأسي، بت ليلتي مستيقظ حائر تؤرقني شدة الحدث، إذ قلبي كان يرتعش من المجهول.

حتى اليوم لم ولا أعرف حقيقة الأمر، هل ضابط الجوازات قد لعب لعبته الماكرة وادعى ذلك طمعًا بالمال، أم أنه كان قليل الخبرة بحيث لم يستطع إكمالها بشكل أو آخر، ولكنه في كل الأحوال غنمَ المبلغ كلهُ... الله وحده هو الأعلم، انتهت هذه العملية بفشل ذريع كان يمكن لها أن تطيح برأسي ومستقبلي ومصير عائلتي وإلى الأبد، لكن في جميع الأحوال كان لا بد من إيجاد البديل وبسرعة.

عندما يصادف سوء الحظ أحد فيلازمه ويصل به إلى أقصى مداه دون توقف أو هدنة، وهكذا كان قدره معي، إذ في تلك الأثناء قامت حرب جديدة حين قامت الولايات المتحدة الأمريكية والمملكة المتحدة بتسديد ضربات جوية مُكثفة على العراق، بدأت بتاريخ ١٦ ديسمبر ١٩٩٨ واستمرت لمدة أربع أيام، حيث استهدفت الصواريخ الذكية بعيدة المدى التي أطلقت من بوارج في الخليج

العربي أهداف مُنتخبة على الكثير من المواقع العسكرية، وشملت البنى التحتية ومصانع التصنيع العسكري، وأدت إلى سقوط عدد كبير من الضحايا العراقيين.

بسبب ما وصفته الدولتان بعدم تعاون العراق ورئيسه صدام مع الوكالة الدولية للطاقة الذرية الباحثين عن أسلحة الدمار الشامل العراقية، كان السبب الذي دعى الرئيس الأمريكي بيل كلنتون ورئيس الوزراء البريطاني إلى إطلاق عملية جوية قادها الجنرال أنتوني زيني، وسُميت (عملية ثعلب الصحراء).

تلك الأيام توقفت الحياة بالكامل، شوارع بغداد أصبحت كمدينة أشباح خالية مُقفرة، المحلات والأسواق مقفلة، عيون الناس تتراقص خوف وهلع، ولا أحد يعلم متى تنتهي هذه الحرب، مع دعائهم ألا تتوسع وتطول كأخواتها السابقات، كانت الصواريخ تنهال على بغداد على مدار الساعة ولكنها تصبح مسموعة ومرئية أكثر في الليل البارد الحالك آنذاك، إذ كان يمكن للمرء أن يرى نتائجها من خلال رؤية النيران وألسنة اللهب التي تُحدثها حرائق انفجارات الصواريخ في المواقع العسكرية، خلال هذه الأيام كان لا بد من زيارة أهلي في بيتهم والاطمئنان عليهم وتزويدهم بالمواد الغذائية والمال مع العمل على طمأنتهم.

كنت أصعد على سطح بيت شقيق زوجتي مُستخدمًا منظار الرؤية الليلية الذي كان بحوزته، وأرى الصواريخ وهي تتجه نحو أهدافها وتصيبها مُحيلة إياها إلى شظايا متطايرة ونيران، الحمد لله على أن هذه الحرب لم تدم سوى أربعة أيام، ومع ذلك كانت أيضًا سبب في تأخير كل شيء، ومنها محاولاتي الفاشلة في الحصول على جواز سفر مزور.

في ظل هذه الأحداث كان لا بد لي من التصرف بحكمة وسرعة أكبر، ولهذا قررت أن أرسل عائلتي إلى الأردن، كي أكون حر في الحركة والتصرف دون الشعور بالخوف عليهم.

يوم شديد البرودة في أوائل أيام شهر يناير عام ١٩٩٩، رحلت زوجتي وأطفالي على متن سيارتين نوع (جي أم سي) برفقة شقيقها إلى الأردن، وبعد رحلة متعبة جدًا محفوفة بالعديد من المخاطر وصلت إلى العاصمة عمان، وبذلك تمَّ إنجاز أولى خطوات الهروب إلى المجهول.

الآن أصبحت وحدي حر في التصرف، مع شعوري الراسخ في وضع عائلتي الآمن إثر استقرارهم في عمان، لم أعتد على الاستكانة أو الخنوع للأمر الواقع في حياتي، فواصلت محاولاتي المتكررة لاستصدار جواز مزور بأي مبلغ وأي طريقة حتى فكرت في الهروب عبر شمال العراق ومنها إلى تركيا ثم الأردن، أو عبر إيران ومنها إلى الأردن للالتحاق بعائلتي، ولكني لم أقدم عليهما، بل أخذت أبحث عن طرق أخرى وكل منها كانت تأخذ جزء ليس قليل من إمكانيتي المالية التي كانت هي بالأساس محدودة جدًا.

عرض علي قريبي (جواد عودة) الانتقال للسكن في بيته ففعلت ذلك مُمتنًا له، كما اقترح علي فكرة جديدة للحصول على جواز سفر مزور آخر، فوافقت فورًا، وبدأنا تنفيذ خطته التي تفتضي السفر إلى محافظة البصرة وأخذ جواز سفر صديقه الفنان المتوفي، بعد أن كان قد رجا زوجة الفنان الطيبة بذلك، وهي وافقت عن طيب خاطر.

مساءً شددنا الرحال سويًا إلى البصرة، استقلينا القطار الذي سار بنا ليلة كاملة حتى وصلنا إلى البصرة صباح اليوم التالي، كان قريبي مأخوذ بتربية الطيور النادرة ومن ضمنها نوع (الزاجل) الذي يُستخدم في مسابقات قطع المسافات البعيدة، لذا اصطحبني إلى أحد أصدقائه الذي لديه محل لبيع هذه الطيور لتحيته والاطلاع على أحوال الطيور عنده، من هناك انطلقنا مباشرة إلى ضاحية تدعى (الكزيزة)، وتقع ليست ببعيد عن مركز مدينة البصرة، وصلناها إلى هناك عصرًا حيث حلّ الظلام وزادت برودة ورطوبة الجو.

هذه المنطقة البائسة التي تقع في محافظة البصرة التي تعوم على بحيرة من البترول بدت لي وكأنها تعود إلى سنين ما قبل الميلاد أو حتى ما قبل عصر الرجل البدائي (نياندرتال)، الطرق فيها بشعة لا زالت غير مُعبدة والطين يغطيها بالكامل ملأى بالحفر التي تغطيها مياه الأمطار والوحول، بحيث لا يمكن السير دون الغوص في هذه الوحول العميقة، التي لا تبعد سوى سنتيمترات عن أبواب المنازل، القاذورات والأزبال تملأ الحي، أما منازل تلك المنطقة فهي شبه آيلة للسقوط، إنها تسمى منازل ولكنها ليست كذلك، إذ إنها أشباه منازل ولكن ليس بمقدور هؤلاء الناس تحمل أعباء ومصارف السكن في غيرها.

لقد أحسستُ بمرارة كبيرة تسحق وجداني وتنزل إلى أعماقي، لقد تركت البصرة عام ١٩٨٦ بعد أن تمَّ نقلي إلى قاعدة البكر شمال بغداد وحين عدتُ لها بعد ثلاثة عشر عام في ١٩٩٩؛ لم أرَ أي بناء أو تعمير أو تقدم، لا بل رأيت أطلال بناء يعيش فيه الناس البسطاء، وحتى أن بعضهم قد احتل هياكل بناء لم تكتمل وجعلها سكن له في ظل ظروف الشتاء الباردة الممطر، لقد آلمني هذا المنظر القاسي وقلت في نفسي أين تذهب ثروات العراق ومليارات النفط وشعبه يعيش بهذه الطريقة المُهينة؟ أهكذا شاء القدر أن يعيش العراقيون؟.

دخلنا بيت المرحوم صديق قريبي، قابلتنا زوجته الفاضلة المتشحة بالسواد والتي بان على وجهها الشاحب حزن الكون بأكمله، استقبلتنا المرأة أفضل استقبال، سلمتنا جواز سفر زوجها الذي يكبرني بحوالي سبع سنوات، دَسّ قريبي بيدها بضعة أوراق خضراء أمريكية، شكرناها كثيرًا وعُدنا أدراجنا إلى بغداد.

لغرض تهيئة هذا الجواز كان لا بد من تغيير صورة المرحوم صاحب الجواز الفعلي بصورتي، كي يظهر وكأنه عائد لي، ولذلك وجبَ الاتصال بأحد خبراء التزوير الذين يكثرون في مدينة صدام (الصدر حاليًا)، كي يقوم برفع صورة المرحوم بطريقة فنية ووضع صورتي، مع استصدار جميع الوثائق المطلوبة

واللازمة لذلك وفق الاسم الموجود في الجواز، وهذا تطلب جهودًا كبيرة مع مصروفات مالية كبيرة.

في يوم استلام الجواز بفارغ الصبر كنت أنتظر في محل قريبي في شارع النهر حين قدم خبير التزوير ويحمل بشرى اكتمال الجواز المزور، حينها لم أتمكن من إمساك نفسي عن سؤاله عن النتيجة وفورًا أشهر الجواز ووضعه بيدي، ما أن شاهدت الجواز ومحتوياته وتمعنت في تفاصيله وكيف تمت عملية رفع الصورة القديمة ولصق صورتي مكانها حتى امتقع وجهي، إذ لم أقتنع بالنتيجة ولم يعجبني جواز السفر بأكمله، إذ أنّ الجواز بدا لي وكأنه يصرخُ بعدم نظاميته وقد يرسلني دون أدنى شك إلى الهاوية، نقدته ما تمَّ الاتفاق عليه من مال دون أدنى شعور بالفرح، إذ علمت فورًا أني لن أستخدمه.

الأيام تمر ثقيلة وحزينة وبطيئة دون أي تقدم في عملية إصدار جواز سفر مزور أستطيع به تجاوز الحدود العراقية إلى المجهول، أمس كاليوم واليوم مثل غدًا لا فرق بينهم سوى لحظات تمر هاربة لا تُحسب من عمر الزمن، رغم تقدم عمري وانخفاض توقعاتي، زوجتي وأطفالي في عمان في أمان ولكن فترة إقامتهم آخذة بالنفاذ، المبلغ المالي في حوزتهم بدأ أيضًا بالتناقص شيء فشيء، أنا في شوق كبير إليهم جميعًا، ولكني هنا أناضل مع قريبي (جواد عودة) من أجل اختراق الحدود دون أمل قريب، ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان كما قال النبي (يسوع المسيح) عليه السلام ولكن بالأمل، فكان عليّ أن أتحلى بالصبر والأمل؛ إذ أنهما مفتاح الفرج ودونهما لن تكون هناك أية حياة.

كما أن سوء الحظ ضربني عدة مرات كما البرد يضرب بأطنابه والمرض يأخذ مني مأخذ وأنا ألوذ في ظل سرية سفر عائلتي، ومحاولاتي الفاشلة في استصدار جواز سفر مزور، وإذا بعمي الأكبر يتوفاه الله، فما كان مني وأنا أكبر الأبناء المتواجدين في العراق إلا أن أتحمل وزر جميع إجراءات ومراسيم الدفن وإقامة مجلس العزاء اللائق وإنجاز كافة الأمور المتعلقة الأخرى، وهذا

ما عرضني إلى إحراجات وأسئلة كثيرة لم ترقني آنذاك، وكان يمكنها أن تفضح أسرار خطة هروبي.

يبدو أن القدر قد اتفق ألا يتفق معي، فبدت الدنيا لي كنفق دون أدنى بصيص شعاع ضوء في نهايته، حتى أصبحتا عينايَّ زائغة ضائعة منهكة جامدة التقاسيم تنطقان بالحزن الشديد وفقدان الأمل رغم علامات الابتسام التي أحاول رسمها على شفاهي، لقد أصبحت نظراتي خالية من أي تعبير إلى الحياة، لقد تاهت عليّ كلمات الحياة بين أصوات القدر رغم المساعدة الكبيرة وكلمات التشجيع التي كان يكيلها لي قريبي وزوجته الرائعة وأولاده الطيبون، ولم يبخلوا إطلاقًا من الترويح والتخفيف عني، كنت أجلس مع أفراد عائلة قريبي وأتحدث معهم وأداعبهم ونضحك لكني كنت بعيد عنهم بُعد السماء عن الأرض.

كادت إحدى محاولاتي أن تأتي بحتفي عندما كنت في طريقي إلى ضاحية الغزالية، لمقابلة شخص يعمل في مديرية الأحوال المدنية لغرض الاتفاق معه لاستصدار هويات مزورة لي، كان ذلك أثناء ركوبي في حافلة مُتجهة نحو ضاحية الغزالية، عندما كانت الحافلة تسير بمحاذاة شعبة الحزب الحاكم في منطقة الشعلة في يوم إعدام رجل الدين الشيعي الصدر وشقيقته، عندها أخذت حشود الشعب الغاضبة والثائرة بالهجوم على مقر الشعبة الحزبية حتى بدأ حراس الشعبة بإطلاق النار الحقيقي المباشر على الناس الذين سرعان ما ارتدوا.

كنت واقفًا داخل الباص وشاهدت ما حصل بأم عيني، حيث اجتاحني رعب وخوف شديدين حتى إني لم أستطع التقاط أنفاسي المتهدجة، ولتفادي الإصابة بالنيران خفضت قامتي إلى أدنى مستوى وناديت على سائق الحافلة كي يطلق سرعتها بأقصى ما يستطيع، وبذلك استطعنا تخطي ذلك الموقف الذي كان يمكن أن يتحول إلى نهاية محتومة لي، والإذعان للقدر في التواري تحت أرض الوطن دون مستقبل في اختراق حدوده والالتحاق بعائلتي.

كل لحظة كانت تمر علي كأنها دهر، ما زالت محاولاتي وقريبي مُستمرة دون انقطاع وكلُ واحدة منها تستنفذ طاقات هائلة وتستقطع من ماليتي المحدودة أصلاً جزء جديد منها، بحيث أخذت تتناقص بشكل كبير دون تحقيق أية نتيجة إيجابية تذكر، أفكارنا تنمو ولا تنضب من خطط جديدة، ولكن الأفق بان وكأنه فراغ في فراغ، وهنا أخذ الأمل يتلاشى مع مرور كل لحظة أو دقيقة.

ما زال الوقت يتدلى بتثاقل كئيب على أوتار الزمن الأغبر دون ومضة أمل في الأفق لكن الهروب من المواجهة لا يحل المشكلة وهو وسيلة الضعفاء، وأنا أرفض أن أظهر ضعيف رغم قساوة الموقف الذي أمر به، إذ علي أن أتحلى بالقوة، والقوة تتحقق عندما تكون صاحب هدف، لذا سأفعل المستحيل كي أصل إليه.

عصر يوم شتوي ماطر بعد أن أخذ الظلام يلف العالم بسواده الحالك زرت سوق الشاه بندر والأسواق المجاور والمحاذية له، ورغبت أن أزور أقاربي وأصدقائي فيها كي أروح عن نفسي، ولعلي ألتقط خيط جديد من الأمل، حتى سقط على بالي حديث قريبي الذي التقيته سابقًا في سوق البياع الشعبي، وتذكرت ما قاله، لي حينها اتجهت فورًا إلى متجره، وكان يقبع في نهاية سوق الألوسي العتيد الذي ينتهي إلى شارع المتنبي الشهير.

لم أكن بوضع يسمح لي أن أُفكِّر آنذاك بشارع المتنبي وأثره الكبير على الحركة الثقافية في البلد، وهو الذي يزخر بالمكتبات الحديثة المليئة بكنوز الكتب والمخطوطات، لقد كان هذا الشارع مبعث إعجاب جميع طالبي العلم والمعرفة والأدب والتاريخ وجميع أنواع الثقافة، أصبح هذا الشارع مركز للمكتبات إثر انتقال المكتبات من سوق السراي العتيد إليه، في بدء ازدهار هذا الشارع كان البغداديون والعراقيون يعيشون عصر ثقافي وإبداعي جميل.

ما أن دخلت إلى متجر قريبي (داخل) حتى هبَّ في وجهي واستقبلني أخوه (سالم) مرحبًا بي فاردًا يديه بقوة رافعًا إياي من الأرض، إذ كانت تربطني بهم

علاقة من ناحية أمي، بعد أن أكملنا مراسيم التحية والسلام والأحاديث الودية وأخبار الأهل حتى باشر (داخل) بسؤالي:
– أرى أنك ما زلت هنا! لماذا لم تسافر حتى الآن؟

طأطأت رأسي إلى صدري وبألم بائن وحسرة طويلة أجبته أني لم أستطع الحصول على جواز سفر مزور كي أنفذ من الحدود كي ألم شملي بعائلتي... فما كان منه إلا أن ذكرني بحديثه السابق مُعاتبًا وقال:
– ألم أخبرك سابقًا أن لدي صديق يعمل في مديرية الجوازات العامة، ويمكنه ببعض المال استصدار جواز سفر رسمي وحقيقي بمعلومات شخص آخر ولكن بصورتك أنت؟ ألم أخبرك به فلماذا لم تأتني؟

تأسفت منه وأعلمته أني لم أخذ كلامهُ على محمل الجد آنذاك، واعتبرته مجرد كلام عابر، ولكن الآن أنا جاهز لكل شيء إن كان الأمر كذلك، أجابني فورًا سوف نتصل به ونستعلم كل شيء، فما كان من سالم إلا أن رفع سماعة الهاتف وأدار الرقم وتحدث مع شخص لم أكن أسمع ما كان يدور بينهما، ما أن أنهى المحادثة حتى قال يمكننا زيارته الليلة والاتفاق معه مباشرة، وسوف نقطع السعر معه اليوم فما رأيك أنت؟.

لم يكن لي أي رأي، إذ كنت جاهز لأي شيء بعد أن فترت همتي لوقت طويل وذبلت طاقتي ونقصت إمكانياتي المالية، وضعفت معنوياتي وانخفضت إلى الحضيض بعد أن آلمني كثيرًا بُعد عائلتي عني، أجبته بقوة وثقة مطلقة:
– نعم أنا جاهز ومستعد ولنفعلها اليوم قبل غد.

أغلق الأخوان قريبي متجرهما واتجهنا سيرًا عبر جسر الشهداء نحو سيارة سالم التي ركنها في ساحة وقوف السيارت في الجهة المقابلة من نهر دجلة الخالد، استقلينا السيارة وانطلقت بنا لا تلوي على شيء، إلى أن وصلنا إلى منطقة تراءت لي أنها راقية، بقيتُ في السيارة لزمت مقعدي وتسمرت فيه، ترجلوا هم برشاقة وولجوا إلى داخل بيت الضابط.

بعد مرور أقل من ساعة خرجوا والفرحة في عيونهم، دسوا أجسامهم في السيارة حتى قالوا لي إن كل شيء على ما يرام، ولقد وافق على الموضوع مقابل مبلغ ثمانية عشرة ورقة أمريكية خضراء (١٨٠٠ دولار أمريكي)، وإنه يبلغك تحياته ويطمئنك أن كل شيء قانوني ورسمي، وكي يزيد من اكتمال الصورة ونجاح العملية حتى أن سائق التاكسي شقيق الضابط يمكنه أن يقلك إلى الأردن.

خفق قلبي بشدة، اجتاحتني موجة من السعادة، هذه اللحظة الحاسمة التي كنت أنتظرها منذ فترة طويلة، كل شيء بدا لي جميلاً، إذًا الأمور أخذت تسير نحو اتجاهها صحيح، شكرت ربي ودعوت أن يُكمل فضله عليَّ.

شكرتُ أبناء خالتي داخل وسالم وسمير كثيرًا، وما زلتُ أشعر بكمٍ هائلٍ من الحب والوفاء لهم لموقفهم الإنساني الطيب.

عدتُ إلى بيت قريبي مفعمًا بالسعادة حتى أخبرتهم بالأمر فكانوا غاية في الغبطة وتمنوا لي نجاح العملية والتوفيق، نمت ليلتها ملء جفوني أحلم بيوم اللقاء ورؤية عائلتي بعد أن مضت عدة أشهر قاتلة طوال.

كان علي أن أزودهم بصور شخصية لي مع تسليمهم بعض من المبلغ المُتفق عليه، لذا زرتهم مساء اليوم التالي وسلمتهم إياها، على إثرها أخذت أحسب الأيام والساعات وحتى اللحظات كي تتحقق المعجزة وأستطيع إمساك هذا الجواز اللعين بيدي، رغم ارتفاع معنوياتي الواضح إلا أني مرضتُ بالأنفلونزا التي طرحتني الفراش لعدة أيام، ولم يسعفني تناول أنواع الأدوية الطبية ولا حتى مزيج الثوم والبصل مع العسل، الذي جعل أولاد قريبي يهربون من الغرفة التي أرقد فيها معهم تخلصًا من الرائحة النفاذة، إلا أني كنت على تواصل متواصل مع أقاربي حول موعد اكتمال الجواز.

الساعة تشير إلى الثانية والنصف ظهرًا رن جرس هاتف بيت قريبي (جواد عودة)، وكان (سالم) على الطرف الثاني، لم يتكلم بإسهاب لكنه اختصر الموضوع وقال إنه علي الآن التوجه إلى متجره لاستلام الدفتر، وكان يقصد الجواز، مع تشديده على جلب باقي المبلغ، شكرته بقوة، توكلت على الله ونهضت فورًا، غيرَّت ملابسي جرجرت نفسي رغم مرضي الشديد وتوجهت نحو خان الشاه بندر ومن ثم عطفت على خان الألوسي ودخلت متجرهم الصغير.

على ما بدا أنهم كانوا في انتظاري، طلبوا لي كأس من الشاي اللذيذ المعطر برائحة الهيل العراقي بعد أن دسوا في يدي كأس آخر من الماء، وتحمدوا لي السلامة، استسمحني (سالم) وخرج بعد أن اتصل بصديقه ضابط الجوازات واتفقا على الاستلام والتسليم. ما هي إلا ساعة زمان حتى عاد (سالم) إلى المتجر ومعه الجواز الأعجوبة الذي سينتشلني من ورطتي.

فورًا امتدت يدي وقلّبتُ صفحاته حتى شاهدت صورتي تحتل مكانها بثبات أعلى اسم الشخص ومعلوماته الشخصية الأخرى، إذ كان من أهالي محافظة الأنبار (الرمادي) شعرت بقلبي ينتفض سرورًا وغبطة، أخبرني (سالم بطيخ) أن الجواز رسمي وقانوني وأنه مدون في المنظومة الإلكترونية بنفس المعلومات ما عدا صورتي وأنه يمكنني السفر به في أي موعد أشاء وبأي وسيلة نقل إلى الأردن.

كان يبدو وكأن العالم أصبح بيدي بعد أن أمسكت جواز سفري المزور الذي وثقت به منذ أول لحظة وليس كالجواز السابق، ثمة مشاعر متناقضة قوية مجهولة تختلج عقلي لم أفهمها لكني كنت أشعر بصدقها وحقيقتها، قلت في نفسي عليك أن تتحلى بالصبر قليلاً كي تصل الأمور إلى نهايتها، فجأة قفزت إلى مخيلتي صور أولادي زيد وهند وفرح، وضحكاتهم وأحاديثهم البريئة

تصورت نضال زوجتي وسعيها الحثيث لإبقائهم تحت جناحيها الدافئين وحمايتهم.

لم تفتني ملاحظة قريبي السابقة حول استعداد شقيق ضابط الجوازات والذي يعمل كسائق تاكسي لنقلي إلى الأردن، لذا أخبرت قريبي فورًا أني قد قررت السفر معه بأسرع وقت حالما يكون جاهز، وسوف أنقده المبلغ الذي يطلبه دون تردد، كان قراري هذا نابع من أساس راسخ أن السائق شقيق الضابط سوف يكون حريص جدًا على إيصالي بسلام وآمان، بدلالة السعي لعدم وضع أخيه الضابط في موقف خطر، وأنه سيبذل قصارى جهده لإنجاح العملية دون أن تحصل أية مشاكل في الطريق أو في نقاط السيطرات الحدودية.

والآن أصبح الجواز بيدي والقرار بيدي أيضًا ولي اتخاذ الطريقة التى أشاء في التصرف، ولكني قد قررت أن أكون مع الوسيلة المناسبة لهذه المهمة المصيرية وأنا على ثقة مطلقة أن الحي العظيم سيبارك خطوتي هذه وسيمدني بالقوة والصبر.

تركتُ متجر أقربائي بعد أن قدمتُ لهم جميع كلمات الثناء والشكر والعرفان لموقفهم الإنساني الرائع وأنا أضع يدي في جيبي، أمسك بالجواز غير مُصدق تمامًا، أتحسسه وكأني أحاول التأكد من عدم اختفاءه، أصك عليه كي لا يهرب، أندس في أقرب سيارة أجرة كي توصلني إلى سوق البياع إلى أقرب هاتف كي أستطيع أن أزف الخبر إلى قريبي.

ما أن حصلت على فرصة الاتصال بالابن الأكبر لقريبي حتى أخبرته بذلك، كان في غاية السعادة، كما رجوته الاتصال بصديقه أحمد كي يتنبأ لي ما يمكن أن يحصل.

رغم أني لا أعترف بالأمور الغيبية ولا بأخبار العرافين ولا الحسد ولا كل غيرها من الأمور وأعتبرها خرافات وتراهات؛ إلا أني في تلك اللحظة قد

استسلمت لها ووضعت نفسي أسير لها، الشاب أحمد هو صديق قريبي المخلص وكنت أراه كثيرًا حينما كان وعائلته يزور بيت قريبي، حينها لاحظت بعض قدراته الفائقة في التنبؤ وغيرها، كان هذا الشاب ذو القدرات الخارقة هو من كان يتنبأ للرئيس صدام حسين ويزوده بجميع قراءاته للمستقبل وصدام وثق به بالكامل.

ساعتان مرتا حتى كنت في بيت قريبي، وكان (فراس جواد) ابن قريبي يعلمني أن صديقه أحمد قد قرأ طالعي، وأن الطريق مفتوح بالكامل لي دون أية مشاكل أو معوقات وكذلك يمكنني السفر أي وقت أشاء، كان الاتفاق مع سائق التاكسي يقضي أن يكون يوم السفر في اليوم الذي يلي غد، لم يتبقَ شيء وسأسير على أشواك الظلم كي أخرج من نفق الظلام وأصِل إلى فضاء الحرية.

تسللت أشعة القمر من بين طيات ستائر الشباك مُقتحمة الظلام الحالك في غرفة منامي، فسقطت على وجهي المتعب فأخذت أهداب عيني تتحرك ببطء متثاقل وشريط الذكريات يمر أمام عيوني بوضوح، وتتراءى لي ومضات عيون وابتسامات أطفالي أمام ناظري، عندها أدركتُ أني أصبحت على مرمى حجر من لقائهم، ومن ثم غفوت بعمق، ليلتها نمت ملء جفوني بعمق بعد أن عادت وتصاعدت في نفسي موجات الأمل.

صباح جديد وأمل متجدد ثمة نسمات باردة حالمة تمتزج بالضباب الأبيض الشفاف تسقط على وجه الطبيعة كي تمنحها سحرها وبرائتها، نهضتُ بنشاط غير معهود رغم مرضي، أخذت ألملم حاجياتي وملابسي أضعها في حقيبتي الصغيرة، وأخذت أتخيل الموقف لحظة اجتماعي مع عائلتي، تكورت في عيني كرات من شوق وسقطت بحنين بالغ إلى خديِّ الساخنين أصلاً بسبب الحُمى وسكنتُ في صمت عميق بحيث باتت أصوات شهيقي وزفيري تُسمع في الأفق البعيد.

قطع صمتي وحنيني صوت زوجة قريبي الطيبة تناديني لتناول الفطور، جلسنا على مائدة الإفطار سويًا ومزاجي ليس على طبيعة الأيام السابقة، إذ أنه اليوم على أفضل حال، لا سيما وأن موعد لقاء الأحبة قد أزف، اليوم مزاجي رائق، تمازحني زوجة قريبي وأبنائها الطيبون كثيرًا حول موضوع عشقي لتناول الثوم مع البصل الذي يقع ضمن اعتقادي الراسخ بفاعليتهما في علاج مرض الأنفلونزا ويقولون لي:

– عمو عباس ماذا يفعل الثوم معك وأنت لا تزال مريضًا؟ لِمَ لم تعافيك شرائح البصل التي تلتهمها دون رحمة؟

كما يضيف ابنها الأصغر مازحًا:

– وهل أعجبتك العَنبة (مخلل مصنوع من خضراوات وتوابل عادة ما يصنع في الهند) التي صنعتها ماما؟ أليس مِلحها قليل؟

ونطلق أنفسنا في ضحكات بريئة مجلجلة...

كان علي ابتياع بعض الحاجيات استعداد للسفر أو بمعنى أصح للهروب من محن الوطن، أو الوطن المِحن، حيث كثرت محنه ولم يبد في الأفق أي بصيص أمل في توقفها أبدًا، لذا توجهت نحو ضاحية الكاظمية وأخذتُ أتنقل بين متاجره وأسواقه العامرة لحين استوقفتني امرأة باسقة الطول ترتدي حجاب غير نظامي، كان قد هوى من قمة رأسها وأظهر خصلات شعر رمادية دون أن تتكلف برفعه عن قصد، إذ أنها لم تكن متعصبة أو مُغالية في دينها أبدًا.

بيدها تمسك (ه.ح) طفلة صغيرة بعمر الزهور، لم أتعرف عليها في بداية الأمر حتى اقتربت مني أكثر، وتفرست في تقاطيع وجهها التي غابت النضارة عنه بعد أن فعل الزمن به فعله، وجعله كوريقة خريف ذابلة رغم ما بانت عليه من مسحات جمال ظاهرة، ألقت التحية علي حتى أزهرت عيناها عن ابتسامة عريضة وأطلقت بريق سحري غاب عنهما زمن، انفرجت أساريرها عن فرح

غامر وشعور أنساها ابنتها التي وقفت أمام واجهات إحدى المحلات تتفرس في بضائع ولعب خاصة بالأطفال.

حييتها بقوة لكن باندهاش واضح فما كان منها إلا أن تنحني وتقبل يدي اليمنى ثم تضع يدها كعصفور في أحضان يدي التي أخذت ترتجفان من شدة المفاجأة، هذا الفعل أحدث في نفسي هزة قوية نفذت إلى أعماقي وأشعرتني بحنين كبير لأيام رائعة خلت من الماضي الجميل البعيد، حتى أنساني مصيبتي وهدفي الحالي، ثواني كسنين مرت وعيوننا تتحدث بالكثير ولم تحد عن بعضهما إطلاقًا، كانتا تُرسلان شعاعات شوق بريئة عن الذكريات واللحظات السعيدة التي كانت تجمعنا حين كنت ما أزال في طور الشباب والحرية قبل الزواج، لقد رفعتني المفاجأة إلى السماء بقوة ثم أسقطتني من علوها فأحدثت في نفسي هزة إضافية ولكنها كانت هزة لذيذة ورائعة.

ما أن انتهيت من عملية شراء حاجياتي حتى عرجت على بيت أبي وأمي جلستُ معهما وأفشيت سر رحلتي ورحلة عائلتي إلى المجهول، دَسستُ كيس مليء بالمال تحت وسادة أبي، قبلت أبي وأمي ورجوتهم الدعاء لي ولعائلتي بنجاح وصولنا إلى بر الأمان وطلبت منهم السماح والغفران، بعيون دامعة مضيت ونياط قلبي تتمزق حتى عرجت على بيت شقيقتي وكانت مع ولدها وابنتها، شقيقتي الصابرة هذه التي لم يرحمها القدر إذ أصبحت أرملة وهي في عز شبابها بعد رحيل زوجها ابن عمي في ليلية سوداء، أثناء الحرب العراقية الإيرانية دون أي شاهد أو قبر له، تاركًا خلفه زوجة شابة وطفلين صغيرين رائعين، ودعتهم بنفس كسيرة ومضيت نحو بيت قريبي.

يوم الخلاص العظيم يوم الرحيل يوم يُكرم المرء أو يُهان كان يومًا شتويًا مشمسًا رائعًا باردًا قليلاً، تجمعنا أنا وجميع أفراد عائلة قريبي (جواد عودة) نقف جميعًا في انتظار سائق سيارة الذي سيقلني إلى المجهول، كنت أنظر لنهاية الشارع كطفل ينظر إلى القمر، حقيبتي الصغيرة جاهزة وتنتصب قرب

عتبة الباب الرئيسية، زوجة قريبي الطيبة كانت قد هيأت كمية كبيرة من الطعام والماء وأنواع العصير بعد أن حسبت حصة للسائق.

شكرتهم كثيرًا، وسأبقى مدينًا لهم طالما حييت، أتذكر سخاءهم وطيبتهم ووقفتهم المشرِّفة، وجميلهم عليَّ.

رغم مرضي الشديد كان شعوري يحمل العديد من الأحاسيس المتناقضة إذ في الوقت الذي كنت أتمنى الرحيل والوصول لرؤية زوجتي وأطفالي بعد أن ضرب الشوق فيّ أطنابه، كان فراق البلد الذي ولدتُ وترعرتُ فيه وفراق أهلي وأصدقائي صعب جدًا، وكذلك فراق هذه العائلة المُحسنة الرائعة التي آوتني وساعدتني في أحلك أوقات حياتي العصيبة، لكن لم يخالجني شعور بالذنب أو الندم إطلاقًا، لقد كنت عازمًا على الرحيل ونيل حريتي بأي ثمن كان.

سيارة نوع تويوتا حمراء اللون توقفت قربنا دون إنذار، ترجل منها رجل في عقده الرابع مُفعم بالشباب والحيوية، وبلهجة أهالي المنطقة الغربية ألقى التحية وعرف عن نفسه وكان هو السائق الذي سيقلني إلى المجهول، على غفلة من الزمن ابتلعتني السيارة الحمراء الفارهة وانطلقت كالسهم تقطع شوارع بغداد الداخلية لا تلوي على شيء باتجاه الغرب وما أن تحسست راحة الشوارع السريعة العريضة حتى أخذت تنهب الأرض مُخلفة ورائها شحنة من مشاعري وأحاسيسي المتداخلة التي أخذت تتناقص شيء فشيء تدريجيًا.

توقف السائق بنا في مدينة الرمادي، دخلنا بيته الكبير الفاره، أكرمني تناولنا وجبة الغداء ثم أقلني إلى مكان سكن الشخص الذي انتحلتُ شخصيته في الجواز المزور، دلني على النقاط الدالة مثل مركز الشرطة ومقر الحزب الحاكم وغيرها في إطار التحسب في حال حدوث طارئ، وما أن انتهينا من جولتنا حتى اعتلينا سيارة أخرى نوع (جي أم سي) أمريكية الصنع، مطلية بلون

سيارات الأجرة البرتقالي، بعد أن عبّأها حتى غصّت بأنواع المواد الغذائية كالتمور والخل والسجائر وغيرها ثم انطلقنا نحو الحدود الأردنية.

كنت قد قررت ركوب هذه المغامرة مع السائق وحدي ودون أي راكب آخر قد يقوم بإلهائه عن مهمة اقتلاع جذوري من العراق، وزرعي على الجانب الآخر من الحدود بأمان وسلامة كاملة حتى أني سددت كامل أجور السيارة، جلست مُطأطأ الرأس مقهور مطحون صامت، حتى القمر لا يقوى إرغامي على الابتسام، بعيون تائهة زائغة أحدق بأرضية الشارع التي تسير وتتسارع بقوة نحوي تاركة إياي لا أقوى على الكلام أو التعبير أو الحركة.

على خجل واستحياء غابت الشمس مُودعة الأفق الجميل بسرعة مذهلة، انتشت السماء بحمرة الخجل بعد أن سحبت الشمس شعاعات النور معها، وبدأت خيوط الظلام بالتسلل نحو الكون ومعها بدأ الصمت والسكون، القمر حزين يسير معنا والنجوم ساكنة، أحدقُ فيه فيمنحني حزن إضافي، قلبي يرتجف ومزاجي عكر، ليس لدي رغبة في أي شيء سوى البكاء، بدا السائق الخبير في مثل هذه الحالات مُدرك لحالتي المأساوية فأخذ يحاول إزالة خوفي وحزني، السيارة تسرع أكثر، بدأت أشاهد إنارة مركز الحدود (طريبيل)[1] توتري يزداد وكذلك رعشة بدني، لم تكلل محاولاته الأولى بالنجاح، ولكنه استمر حتى أخبرني أنه على ثقة كبيرة أن جميع الأمور على الحدود ستمضي على سلام، إذ أن الكثير من معارفه وأقاربه يعملون في المركز الحدودي، وهُم من يُدير عمليات الفحص والتأكد من صحة الجوازات، وإنه حريص جدًا على عدم افتضاح أمر أخيه ضابط الجوازات، عندها شعرت بقليل من الراحة وخَفّ توتري بعض الشيء.

:- طريبيل: مركز التفتيش الحدودي الواقع بين العراق والمملكة الأردنية الهاشمية.

الظلام الحالك يتزايد والجو أصبح أكثر برودة وحرارتي بسبب مرض الإنفلونزا ترتفع كلما اقتربنا من نقطة الحدود، المرض يفتك بي كما الخوف... آه يا لطبيعة الدنيا هل هذا ثمن الحرية، كل شيء في الحياة غير منطقي، في حضرة الظلام يجتمع الحزن والمرض والخوف ولا سلطان عليهم، أرفع رأسي نحو الأعلى وأرى عبر نافذة السيارة شكل الكون كصورة سوداء باذخة الجمال يتوسطها قمر صافي مُضيء رائع وقت اكتماله، حين بدا كقرص دائري مُنتظم الشكل تبرز في داخله خارطة تضاريس واضحة ذكرتني بأقوال العراقيين الذين كانوا يرددون مقولة إنهم يشاهدون صورة الزعيم عبد الكريم قاسم على سطح القمر، غيمات صغيرات تدور وترقص حوله كأنها تدعو الناس إلى فُرجة مجانية.

الليل ينتصف ونحن نقترب نحو مصدر الإضاءة والأنوار الصادرة من مركز الحدود، إنها بداية الخطر أم خط نهاية الحزن؟ يضغط السائق دواسة الفرامل فتقف السيارة في أول نقطة سيطرة فيتوقف قلبي عن الخفقان معها، وأكاد لا أقوى على السيطرة على رعشة ساقاي ويداي، إذ أخذتا بالرقص دون ألحان، يلقي عليهم التحية ويشهر جوازي المزور وجوازه فيسمحوا له بالمرور، يواصل إلى نقطة السيطرة الثانية وهي الأهم والأخطر، وضعت في يده كل ما أملك من نقد عراقي فيترجل السائق بعد أن أخذ الجوازات ويُدبر نحو موقع فحص الجوازات والتأشير.

هل سأنجو؟ لا أعرف بعد، إذ أني على بعد أمتار من الطرف الثاني من الحدود وكذلك من قضبان السجن وحبل المشنقة إذا ما فشل الهروب، أجلس مقرفص رجليّ أضعُ يديّ بينهما وأرتجف من الخوف والبرد والمرض، يا إلهي... هذه جميعها اتحدت في جبهة واحدة فأحدثت في نفسي موجة عارمة من الرعب الأسطوري، الذي تملكني بالكامل سحقني حتى النخاع.

بين ثانية وأخرى أنظر إلى نقطة السيطرة عسى أن أرى السائق قادم مُبتسم ولكني لا أرى شيء سوى الفراغ والظلام الحالك السواد، بقوةٍ أمسك الدرفش[1] الذي يتدلى في سلسلة ذهبية أرتديها حول عنقي دومًا، وما زلت أردِّد صلواتي وأدعو من الحي العظيم أن يُنجيني من فك الظالمين ، تُرى ماذا سيفعلون بي لو اكتشفوا أمري؟ هل سيرسلوني إلى سجن الحوتة في مديرية الاستخبارات العامة فيُحيل حياتي إلى جحيم، أو قد يختصروها بإرسالي إلى المحكمة الخاصة (محكمة الثورة)، التي بدورها ستهدي روحي تذكرة سفر مجانية سريعة إلى الجحيم؟ احتوتني هالة كبيرة من سكون الموتى أدخلتني في دوامة سوداء، وقلت ماذا سيحل بعائلتي التي انقطعت السُبل بها في الأردن بعد أن قاربت تأشيرتهم على النفاذ؟ هل ستطاردهم الشرطة الأردنية وترغمهم على العودة إلى السلطات العراقية التي ستتلقفهم بسعادة بالغة وستتلذذ بإهانتهم؟

الدقائق تمر حزينة وعقلي لا يسعه التفكير، فترة غياب السائق طالت ماذا يفعل هناك يا ربي؟ هل كشف الأمن أمري وأخذوا يحققون معهُ أم ماذا؟ هذه اللحظات هي الخط الفاصل بين الموت والحياة بين الظلم والحرية وأخيرًا بين الظلام والنور، ولكن لماذا هذا التأخير؟ ألم يقل إنهم من معارفه وأصدقائه؟ دقائق سوداء تمر وتحل محلها أخرى أكثر قتامة وتمضي ثالثة ثقيلة وقاتلة والفراغ والصمت والرعبُ يلفني بالكامل ولا يدعني أستنشق نسيم الليل البارد، تزداد نوبة الربو اللعين أتناول أنبوب الدواء لأفرغ منها شحنة في أعماق رئتيّ المسكينتين كي تصمدا في وجه ريح الرعب العاتية التالية.

أعود وأكرر تلاوة صلواتي ولا شيء بوسعي سواها، إنها ملاذي الأول والأخير، بإمكاني أن أتذكر جيدًا حين تراءى لي كما يحدث في الأفلام شريط

:- الدرفش: وتعني الراية وهي الرمز المندائي الذي ينصب عند إجراء التعميد في المناسبات الدينية.

الذكريات وجوه أبي وأمي، نظرات زوجتي وابتسامات أطفالي، لحظات السعادة والتعاسة في جميع صفحات حياتي.

دهرٌ مضى ببطء شديد والسائق مفقود في الفراغ والعتمة، وأنا أتأرجح على الحبل الرفيع ما بين الجحيم والنعيم، ما زلت أردد الشهادة المندائية (يا هيي... يا ماري... يا مندا إدهيي)[1] تارة أتعلق بدعواتي وصلواتي وكذلك كلمات السائق التي طمأنني بها قبل تلاشيه في الظلام، وتارة أخرى أرى الشيطان بلباسة الأسود وهو يستعد مُبتسم كي ينجز عمله الروتيني معي، يا إلهي أرى شبح يتحرك قد يكون السائق، نعم إنه السائق أخيرًا، يا إلهي ماذا حدث معه، ليخبرني بسرعة قبل أن أفقد عقلي...

يتقدم السائق بأريحية مطلقة حاملاً بيده الجوازات يدخل إلى السيارة، يرمي الجوازات على سطح عدادات السيارة بهدوء قاتل، ثم يتربع على كرسية الوثير الذي أضاف إليه بعض الشراشف الملونة كي يكون أكثر راحة ونعومة دون أن ينبس بكلمة واحدة مُحاولاً تدوير المحرك، جسمي ورأسي يدوران نحوه وعقلي ينتظر كلمة واحدة منه وهو لا يبالي بأي شيء, بصوت ضاعت عنه الحياة أهجم عليه بقوة متسائلاً عن النتيجة فيجيبني ببرود:

– يا أخي نحن نعمل بجدية وتفاني فلا تقلق... كل شيء سار على ما يرام، وإن خبر عبور الطائر (ويقصدني بذلك) قد وصل إلى بغداد...

ثم أطلق ابتسامة منتصرة تحولت بعد ثوانٍ إلى ضحكة ذات صوت مسموع، وتحرك بسيارته إلى مركز تفتيش الحقائب بعد أن أعاد لي بعض الدنانير العراقية قائلاً:

:- الشهادة المندائية (يا هيي.. يا ماري.. يا مندا إدهيي): وتعني الله موجود الرب موجود العليم موجود، يقولها المندائي في كل وقت تقريبًا إشارة إلى ذكر الله، وأحيانًا كثير في تفويض الأمر لله يمكن أن تقابل (لا حول ولا قوة إلا بالله).

– يمكنك أن تُعطيها إلى موظف التفتيش.

دسستها في جيبي دون أن أقول شيء سوى كلمة شكرًا.

وقف السائق بسيارته مرة جديدة لتفتيش بضائعه وترجلت معه كذلك، رفعت حقيبتي الصغيرة بيدي وتوجهت نحو دكة التفتيش ووضعتها عليها، غرفة التفتيش صغيرة متواضعة وغير مرتبة، ولم يكن أحد بها لذا انتظرت لدقائق، جاء أحدهم عيناه تقدحان مكر وطلب مني جواز سفري، قلبي أخذ ينتفض خوف مرة جديدة، وبدأ بدني يرتجف كسعفة نخلة وسط عاصفة، ما أن قرأ المعلومات في جواز سفري المزور حتى سألني عن تاريخ ميلادي فأجبته ١٩٤٨، فما كان منه إلا أن يقول:

– لا يبدو عليك هذا العمر...

كلماته هذه أحدثت زلزال في أعماقي، إذ لا أمان ولا سلامة في هذا المكان إطلاقًا كُلهم ينتمون إلى جنس واحد وهو النظام الحاكم والاستخبارات ومنظومة الأمن، ولكن كيف استطاع هذا الثعلب الماكر تمييز عمري رغم إطلاقي لحيتي وعدم تصفيف شعري والتعب الظاهر على وجهي، نتيجة جميع أنواع المتاعب التي صادفتني في كل فترة التخطيط والتنفيذ للهروب؟ ما العمل الآن؟ يجب ألا أدعه يتنفس، يجب أن أردعهُ فورًا، يجب أن أجعله يرتد عن تلك الفكرة، لذا لم أدعه يكمل أخر حرف من كلمته الأخيرة حتى قلت:

– يا أخي لا تنق عليَّ وأنا ذاهب لأجري عملية في عمان... لا أعرف إن كنت سأعود لبلدي بعدها حيًا أم سيعيدونني في تابوت.

فورًا دسست بيده الدنانير فصمت وأخذ يقلب حاجياتي لحين وقع نظره على زجاجتين من العرق العراقي الرائع كنت قد جلبتهما معي، حتى بدأ المفتش من جديد قائلاً:

– أنت تقول إنك ذاهب لإجراء عملية، بينما أنت تصطحب عرق معك فكيف يستقيم الأمران؟

أجبته بسلاسة ودون تفكير:

– وما الذي يجعلني أصبر على الآلام غير هذا العرق، علمًا أن إحدى الزجاجتين سأهديها للطبيب الذي سيجري لي العملية...

يبدو أنه سكت على مضض، خرج من الغرفة وتركني أعيد ترتيب حاجياتي عندها زاد خوفي بجنون من أن يقوم بالإبلاغ عني وعن موضوع عمري، فتملكني الرعب من جديد، يا الله متى تنتهي هذه المحنة، ألا تنتهي المحن في هذا الوطن، حتى على حدوده تتوافر جميع أنواع المحن والشدائد.

رفعت حقيبتي وخرجت من غرفة التفتيش وأخذت أبحث عن السائق الذي اختفى مرة أخرى في عتمة الليل، وكأن الدنيا قد ابتلعته، غصت بسيارته، لا أرى أي أثر له أين هو؟ ماذا حلّ به؟ أنتظر واقفًا والخوف يسري في أعماقي، ألتفت يمينًا ويسارًا خوفًا من أن يأتي أحد رجال الأمن ويُلقي القبض علي، أتذكر صلوات أمي وأرددها في نفسي! أين ذهب هذا السائق بحق الجحيم؟ هل هذا وقت الاستراحة أو المزاج؟ ما هذا البؤس، إنه يوم الحساب العظيم بالنسبة لي وهو غارق في أموره الدنيوية.

اعتقدت أن عملية تفتيش الحقائب هي أخر مرحلة نحو الحدود الأردنية، هنا بدأت الجن تعزفُ أنغامها الملعونة في رأسي، فخطرت لي فكرة جنونية أن أرتقي إحدى الحافلات الكبيرة التي تضم الكثير من الركاب فأغرق بينهم، كنت على قاب قوسين أو أدنى من تنفيذها، ولكني تراجعت في اللحظات الأخيرة، وبقيت أنتظر سائقي على نار أحر من الجمر.

رحتُ أطوف بنظري يمينًا وشمالاً دون أن أرى سيارته التي ضاعت بين طوابير السيارات الهائلة التي اصطفت كحيوان خرافي، حرارتي ترتفع وتضرب رأسي بعنف، شعرت بالغثيان، ساقايّ ما عادا يستطيعان حملي؛ فاتكأت على الجدار المنخفض كي أسند بدني، دقائق تمر علي كأنها سياط تجلدني، تدميني تقتلني وترسلني إلى بئس المصير، أصبحت على وشك الانهيار

أو بالأحرى أخذت بالانهيار فعليًا، حتى ظهر أخيرًا سائقي وهو مُطأطأ الرأس متأسف عن التأخير الذي كان بسبب شحنة المواد التي كان قد عبئها في سيارته وغَصت بها.

ما أن رأيته حتى عاد الدم إلى وجهي، تَسللت فورًا مع حقيبتي إلى سيارته، ومضى بنا نحو الحدود حتى تفاجأتُ بظهور نقطة تفتيش جديدة، أراهم السائق جوازاتنا ومدهم بكيس كبير يحتوي على طعام عشاء يكفي لعدة أشخاص، كان قد ابتاعه من أحد المطاعم التي توقفنا عندها في طريقنا الموحش لغرض الذهاب إلى الحمام، أخذوا الكيس من يده، ابتسموا له وودعونا.

ما أن ترك السائق نقطة التفتيش هذه حتى أسرعتُ بسؤاله:

– أين نحن الآن؟ هل توجد نقاط تفتيش عراقية أخرى؟

فأجابني أننا قد قطعنا خط الحدود العراقية وأصبحنا في المنطقة الفاصلة بين العراق والأردن، هنا أخبرت السائق أنني وبسبب تأخره في التفتيش كنت قد فكرتُ الركوب في إحدى الحافلات العامة، فما كان منه إلا أن قال لي إنها خطوة غير صحيحة بالمرة، وكانت ممكن أن تجلب الشك أو حتى أمر أسوأ من ذلك، اعتذر مرة أخرى على التأخير إذ كان عليه دفع رسوم مقابل بضاعته الكثيرة، دسستُ في يده عدة أوراق أمريكية خضراء احتفالاً مني بنصر ونجاح هروبي إلى المجهول، أكد لي أنه لا توجد أمامنا أية أراضي أو سلطات عراقية.

رغم دفء الوطن وحميمته إلا أننا أخذنا نشعر أننا أغراب عنه، وكأننا أصبحنا حَبيسي سلطة الحاكم المطلق في حدود الأرض التي ولدنا وترعرعنا فيها، بعيدًا عن الحياة الحرة... لقد فقدت عينيّ بريق الحياة في موطن ولادتي، وقلت في نفسي الحزينة هل هذا الوطن الذي لم يحترم آدميتنا يومًا يستحق أن نشعل حياتنا من أجله! كانت أخر حبات رمل من أرض العراق تطأها قدماي، ولأخر مرة أراها بعيني حتى الآن.

عندها أدرت رأسي إلى الخلف شاهدت صورة كبيرة للرئيس العراقي، وكانت أخر جدارية للدكتاتور يظهر فيها مودعًا المسافرين العراقيين الهاربين من جحيم نظامه، والذين لم يعودوا إلى أحضان الوطن مطلقًا، تنهدتُ كثيرًا بأخر أنفاس هواء العراق التي ظلت بصدري، ثم أشحت بوجهي مغالبًا الشوق المعهود للوطن، وصارت عيوني تحاول أن تتفرس البصر بالمجهول.

obeikan.com

obeikan.com

❁ ❁ ❁

المؤلف في سطور

- من مواليد العراق/ بغداد عام ١٩٥٥م.
- مهندس طائرات، ومترجم، وصائغ ذهب.
- متزوج وله ثلاثة أبناء وأربعة أحفاد.
- هاجر مع عائلته إلى الدنمارك عام ١٩٩٩م.
- أنهى دراسته الإعدادية عام ١٩٧٣م بتفوق، وتم إرساله ضمن بعثة رسمية إلى الاتحاد السوفيتي/ أوكرانيا/ كييف لدراسة هندسة الطيران.
- أنهى دراسته عام ١٩٧٨م بتفوق وحصل على شهادة الماجستير في هندسة الطيران.
- درس اللغة الروسية لخمس سنوات وحصل على شهادة ترجمة فيها.
- عام ١٩٨١/ ١٩٨٢م تمَّ إرساله إلى الاتحاد السوفيتي في بعثة دراسية للحصول على تخصص في مجال تصليح المحركات النفاثة الجوية.
- يجيد ثلاث لغات إضافة للغة الأم العربية؛ هي الروسية والإنجليزية والدنماركية.
- عمل في الجيش العراقي - القوة الجوية العراقية - لمدة ٢١ سنة، وتَدرَّجَ في الرتب والمناصب العسكرية حتى رتبة عقيد مهندس.
- ترجم الكتاب الهندسي الخاص بصيانة وتصليح محرك الطائرات سوخوي ٢٢ من الروسية إلى العربية.
- أسَّسَ عدة وحدات هندسة وصيانة للطائرات في قواعد سلاح الجو العراقي، وكانت له مواقف مشهودة في إنجاز العديد من الأعمال الهندسية المُميزة.
- ١٩٩٤م قدم عدة استقالات من الجيش دون راتب، وتقديرًا لخدمته الممتازة في الجيش العراقي تمَّ منحه تقاعد كامل.
- عمل في مجال صياغة وتجارة الذهب والفضة منذ ١٩٩٢ لغاية ١٩٩٩م.

obeikan.com